قصة قصيرة

السوق

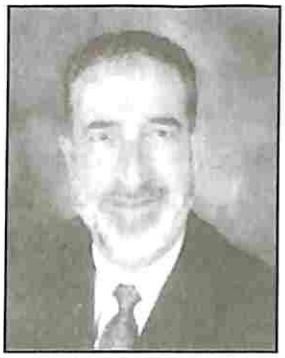

بقلم: د. عماد الدين خليل
العراق

أتيح لي أخيراً أن أعمل حارساً ليلياً..

كنت قبل أكثر من عشر سنوات طالباً بالقسم الأدبي في الثانوية الشرقية.. وكنت بسبب من مطالعاتي الموصولة أملك قدرات طيبة في مجالي الخطابة والكتابة، وتوقعت أن أجتاز السنتين بسهولة بالغة، وربما بتفوق، لكن مادة الرياضيات التي لم أحسب حسابها وقفت في طريقي ومنعتني من المضي إلى هدفي..

الويل للغة الأرقام.. ألا يكفي أن يتمرس الإنسان بلغة الحروف والكلمات؟ لكنها مطالب المنهج كما يقولون، ولا بد إذا أردت أن تمضي إلى الجامعة لصياغة المستقبل الذي تحلم به من اجتياز عقبة الرياضيات الكأداء.

لم أوفق في امتحان الثانوية على أية حال، وأعدت المحاولة في سنتين متتاليتين فلم أصل إلى شيء.. وانتهى الأمر بفصلي من المدرسة، وبدأت ملحمة الصراع مع الحياة من أجل ما يسمونه بالضمانات المعيشية، وتنقلتُ في الوظائف الصغيرة والحرف والأعمال.. لم أطق البقاء طويلاً في أي منها، فما هي إلا أشهر أو أسابيع حتى أتركها وأبحث عن عمل جديد.

لعله الملل.. لعله الاعتقاد بأنني لست في مكاني تماماً.. وربما، وهذا هو الأرجح، تلك الرغبة المتنامية في التعرف على الأشياء واختبارها والتي اكتسبتها على ما يبدو من مطالعاتي الكثيرة. وإلى جانب هذه الرغبة كان ينبض في طبقة غير مرئية من الأعماق هاجس مقلق ولكنه مغرٍ في أن أكتب.. أن أخرج هذا الهدير الذي يضرب حافات النفس، وينسرب في تياراتها وشعابها، إلى الضوء.. أن أعبر عنه بقوة الكلمة وأجعله شيئاً مرئياً..

ويوماً بعد يوم بدأت أشعر بأنني أعاني من حالة الانشطار المرهق بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون.. ولم تعد كل الأعمال التي أمارسها قادرة على أن تعيدني إلى التوحّد وأن تمنحني القناعة والرضا..

وطالما حلمت بالتفرغ للكتابة، ولكنني كنت دائماً أسمع أن الكتابة لا تطعم ولا تسقي، وأن علي أن أعمل - أولاً - إذا أردت أن أمنحها الفرصة الحقيقية، وسط ضمانات الحياة اليومية والمطالب المعيشية.

واستوقفني يوماً وأنا أجتاز مركز الشرطة إعلان ملصق على جداره الخارجي شد انتباهي بحبره الجديد وسط مجموعة من الإعلانات الورقية التي حال لونها..

اقتربت قليلاً ورحت أقرؤه وأنا أعاني من العجز والملل لعله يُخرجني - لحظات - من البئر التي أكاد أغوص فيها: إنهم يطلبون حارساً ليلياً لسوق السراي التجاري بأجر شهري لا يتجاوز الثلاثين ديناراً.

مددت شفتي ازدراءً، وطوّحت بيدي اليمنى تعبيراً عن "لا أُباليّتي" وواصلت المسير.. ثم ما لبث خاطر ما أن أخذ يلحّ علي شيئاً فشيئاً، وكأنه يسعى لحصاري

وتضييق الخناق علي، وتساءلت: ولم لا؟! أليست هي خبرة جديدة تتميز بالطرافة التي طالما بحثت عنها، دعك من الأجر الذي لا يكاد يسمن من جوع. لكن العمل نفسه ينطوي على إثارة ما، ويكسر رتابة حياتك المملة، ويمنحك طعماً جديداً؟

دون أن أستشير أحداً.. دون أن أتريث بانتظار اليوم التالي، قفلت عائداً إلى المركز ودلفت إلى شعبة (الأفراد) وسألت عن الموظف المعني وما لبثت أن قلت له:

- ثمة إعلان عن طلب حارس ليلي لسوق السراي.

أجاب دون اكتراث:

- التفاصيل موجودة في الإعلان نفسه..

كتمت انفعالي وأنا أقول:

- أعرف.. ولكنني أسأل عن إجراءات التعيين..

نظر إلي بتكاسل، ولحَظْتُه يتحول شيئاً فشيئاً إلى دائرة الاهتمام وهو يرى أناقتي الظاهرة كأنه يتساءل فيما إذا كان شاب مثلي يقبل على نفسه مهمة كهذه!

قلت بلمَّاحية اكتسبتها من كثرة مطالعاتي:

- أعرف.. ولكنه ليس الأجر الشهري..

لم يدرك ما قصدت إليه فواصلت:

- إنها خبرة مغرية.

- ولمن..

- سأتقدم إليها على أية حال وأرجو أن ترشدني إلى الإجراءات المطلوبة.

بعد يومين كنت أحمل بندقيتي التي تسلمتها من المركز وأقف عند مدخل السوق..

كانت الدكاكين الثلاثة الأخيرة تقفل أبوابها، وبدايات الليل تزحف على السوق، وقلت في نفسي: سبحان الله! وأنا أقارن بين الصخب والحركة المزدحمة والنشاط الكثيف الذي يعرفه جيداً كل من يجتاز السوق نهاراً، وبين هذا الصمت والهدوء، والفراغ الموحش الذي يدلف إليه مع بدايات الظلام..

ولعلي - بسبب مطالعاتي أيضاً - حاولت أن أجري مقارنة بين وضع السوق في النهار ووضعه في الليل.. ولست أدري لم تذكرت الحياة الدنيا نفسها، وتصورت كما لو أن السوق يعبّر بصدق عنها.. فهاهي ذي كل هموم الناس، وركضهم اللانهائي، وأمانيهم الصغيرة، وجشعهم الذي لا حدود له، ولهاثهم وراء المزيد من الضمانات، وتجاوزاتهم - أحياناً - لمطالب الأخلاق والضمير.. لضوابط الدين والقيم.. ها هي ذي كلها تتكشف عن اللاشيء! عن هذا الفراغ الذي لا يعد بشيء.

إن الاكتظاظ الذي لم يدع شبراً واحداً من السوق لا تتحرك عليه قدم،أو تشير فيه يد، أو ترى عين وينطق لسان، يغدو على حين غفلة فضاءً خلواً من أي شيء.. فليس ثمة على الإطلاق حركة، أو نأمة، أو إشارة.. ليس ثمة أحد.. لقد تركه أصحابه ومضوا.. وهاأنا ذا وحدي قبالة الوحشة والظلمة والفراغ.

أحسست بشيء من الخوف والرهبة يتسلل إلى مفاصلي فشددت على مقبض البندقية جيداً وكأنني أحاول الاطمئنان إلى قدرتها على حمايتي من الوحدة والأذى.. وثمة دفقة عزاء منحتني اطمئناناً أكثر.. فهاأنا ذا في صميم التجربة التي اخترتها بحرّيتي والتي قد

تشبع فضولي وتمنحني الكثير! لابد من التضحية إذا أردت أن أتعلم!.

معظم أصدقائي، لدى سماعهم نبأ قبولي المهمة، انتقدوني، بعضهم تجاوز ذلك إلى الهزء والاستخفاف..واحد اثنان فقط أدركوا ما أريد، كانوا - مثلي تماماً- يقرؤون بنهم، ويتوقون لحياة تتوحد فيها المعرفة بالواقع.. الكلمة بالسلوك.. وطالما اتهمنا نحن الثلاثة بالمثالية وبأننا خياليون، قد لا نقدر على مجابهة ضغوط الواقع والتوافق مع مقتضياته، وأن الأمر سينتهي إلى إحدى اثنتين شئنا أم أبينا:

الاعتراف بالهزيمة.. أو الجنون!.

من جهتي لم آبه مطلقاً لموقفهم هذا.. لقد اعتدته منذ كنت طالباً في الإعدادية أحلم بأن أصير روائياً كبيراً! وكانوا يقولون بلسان الحال أو المقال: لا تحاول أن تقفز في الفضاء لئلا تسقط وتتكسر!

أجيبهم متحدياً:

- سترون كيف أنني سأنهض عقب كل سقوط لكي أواصل الطريق.

والآن من يستطيع أن يقنعهم بأن قبولي أن أصير حارساً ليلياً يعني أنني أصبحت واقعياً أكثر منهم.. فها أنا ذا أقف على إسفلت سوق السراي لحماية دكاكينه من السرقة! فهو ليس حلماً أو خيالاً.. لكن هذا ليس نهاية الطريق، أو الحلقة الأخيرة في السلسلة.. فهناك مالا يدركونه أو يتذوقونه.. هو.. أن أتجاوز الواقع نفسه إلى ما وراءه.. أن أستمد من حيثياته المنظورة والمسموعة، القيم والمعاني التي تتشكل وتخفق بعيداً عن دائرة الحس.. عن سطح المسموع والمنظور..

ويوماً بعد يوم وأنا أزداد اقتناعاً بخياري هذا.. قلت في نفسي: لعلها أكثر الأعمال التي مارستها تحقيقاً لطموحي.. وسيجيء اليوم الذي ستتحول فيه التجربة، أو تغذي على الأقل،ما كنت أحلم به دائماً..

مع بزوغ الفجر يتنفس السوق من جديد.. دبيب لا يكاد يحس أو يرى، يسري في أوصاله.. وشيئاً فشيئاً يبدأ في تلقي العائدين إلى كدح النهار..

أصوات الأبواب الحديدية تئز بعنف هنا وهناك.. متفرقة، ومجتمعة.. أقدام المارة تجتاز أزقته الفرعية بتثاقل أول الأمر، ثم ما تلبث أن تتجاوز حركتها البطيئة فتغذ السير.. وشيئاً فشيئاً، يتلقى السوق رشقات من المارة الذين يزدحم بهم السوق فيضطرون، بين الحين والآخر، للتدافع بالمناكب والأيدي.. كل واحد يريد أن يصل إلى هدفه بأسرع ما يطيق.. والتجار والباعة يتركون مقاعدهم لكي يبدؤوا حركتهم النّواسية ذهاباً وإياباً تلبية لرغبة هذا المشتري أو ذاك..

ووسط زخات الأصوات التي تعلو وتنخفض كما لو أن "مايسترو" في مكان ما يوزع عليها الأدوار.. تربت على كتفي يد حانية.. التفت وقد ذهلت عن نفسي فأجدني قبالة مراقب البلدية الذي يتسلم عمله في الثامنة من صباح كل يوم.. يتساءل بدهشة عن السبب الذي يبقيني في السوق إلى هذا الوقت المتأخر.. فلا أرد عليه.. يمضي مقتنعاً بصمتي.. ثم ما ألبث أن أغادر المكان.

المقارنة إياها بين رحلة الليل والنهار تلح على خاطري رغم الجهد والسير والإعياء وإغراء النوم.. أجر خطاي بتثاقل صوب البيت الذي يقبع في محلة (جامع خزام) والذي لا يبعد كثيراً عن السوق..

ها هم قد عادوا كرة أخرى.. أقول في نفسي.. والسوق يصير حلبة للسعي المجنون الذي لا يقف عند حد.. أصواتهم تبح وهم ينادون على السلع الساعات الطوال.. أيديهم وأرجلهم تكل وهم يركضون هنا وهناك تلبية لمطالب المشترين.. ألسنتهم تجف وهم يحلفون بأغلظ الأيمان أن ما يقولونه هو الصدق وأنهم لا يعرفون الكذب على الإطلاق..

قد يكون من حقهم أن يفعلوا هذا كله فإن للمعاش أفواها فاغرة وأنياباً حادة تتطلب المزيد. لكنني متأكد أنهم لن يقفوا عند حدود تطمين هذا الذي تفرضه عليهم الحياة.. بل إنهم يريدون دائماً الأكثر، برغم كل شيء، أن يصير وادي الذهب والفضة واديين أو ثلاثة.. وأن تمتلئ خزائنهم بالمال حتى يفيض عن حاجاتهم وحاجة ذويهم.. بكثير..

وأقول في نفسي: لو أنهم يتذكرون - فقط - ما سيصير عليه السوق بعد فراقهم إياه.. لو أنهم يملكون قدراً من الفطنة ليتبين لهم أن الحياة التي أسرتهم بأكثر ما يجب، وسدت عليهم المسالك، هي نفسها هذه السوق وأنها عما قريب سيغادرها أصحابها دون أن يحملوا معهم سوى التراب ويتركونها للوحشة والظلمة والصمت والفراغ..■